الشاعر
« ممدوح عدوان »

قراءة غير محايدة في شعر "ممدوح عدوان" ٣

بعد ان عرضنا ديواني ممدوح عدوان الاخيرين « يألفونك ٠٠ فانفر » و « امي تطارد قاتلها » نستطيع في ما يلي وضع ملاحظاتنا على شعر ممدوح ، وتحديد موقعه في الخارطة الثقافية العربية ومن ثم اسقاط الستار عن حقيقة الهجمة اليمينية التي تحاول النيل منه ومن شعره ٠

بدأ ملاحظاتنا بالاشارة الى ان ممدوح عدوان كالسياب ومحمود درويش وأدونيس واهم رواد الشعر الحديث في الوطن العربي ، كجميع هؤلاء قدم ممدوح من الريف العربي الذي يتشابه كثيرا من حيث المستوى الاقتصادي والاجتماعي ٠ قدم من الريف الى المدينة ليؤسس ثقافة « انقلابية » جديدة تعكس التغييرات السياسية التي شهدتها المنطقة العربية منذ بداية الستينات حيث تحركت شرائح برجوازية صغيرة صوب السلطات العربية السائدة واستلمتها عن طريق الانقلابات العسكرية ٠ وهذه الحركة البرجوازية الصغيرة التقدمية ـ انذاك ـ استنهضت معها كل القوى السياسية والاقتصادية والثقافية التي حاولت الاستجابة لهذه الانقلابات العسكرية في جميع الحقول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ٠

ان الاضطهاد الذي اتضح اكثر في الريف من خلال استغلال الاقطاعيين للفلاحين هو الذي كان سببا رئيسيا في تفجر الامكانات الابداعية . حتى في فلسطين حيث كان الشعر الفلسطيني المقاوم في معظمه ابنا شرعيا للريف الفلسطيني الذي شهد اضطهاد الاقطاعيين للفلاحين ، ومن ثم اضطهاد الاقطاعيين والصهاينة معا للفلاحين الفقراء ٠٠٠ لذلك كانت قصائد محمود درويش الاولى من « البروة » الفلسطينية ، وقصائد بدر شاكر السياب الاولى ايضا من « جيكور » العراقية ، وقصائد ممدوح عدوان الاولى كذلك من « دير ماما » السورية ٠٠٠ الخ ٠

الهوية الايديولوجية

مما سبق يكون واضحا آن ممدوح عدوان بايع احد احزاب البرجوازية الصغيرة ، وبالذات الحزب الذي استطاع استلام السلطة السياسية منذ اوائل الستينات ٠ ومنذ ذلك الحين كان ممدوح عدوان الشاعر يعكس في قصائده المفاهيم القومية التي طرحها حزبه كما كان يعكس على الصعيد الطبقي هموم الفلاحين الفقراء حتى في ظل السلطة السياسية الجديدة ٠

ومن خلال سيرة ممدوح عدوان الشعرية ، التي تبنى لي معايشة جزء هام من تفاصيلها يبدو لنا انه كان يطمح لان يكون « مايأكوفسكي » سوريا ، بل الوطن العربي ٠ وذلك اتضح مظهرا من خلال وله ممدوح بخليفة مايأكوفسكي في الاتحاد السوفياتي ، اعني الشاعر المعاصر «يفتوشنكو»٠٠

وكما كان مايأكوفسكي يرعب البرجوازيات والارستقراطيات اثناء القاء قصائده ، وكما كان بعد كل عويل يصدر عن انثى من الطبقة البيروقراطية ، يقف عن الالقاء وينفث سيجارته في فضاء الصالة ساخرا ٠٠ حدث لممدوح عدوان اكثر من مرة ٠ ففي احدى الامسيات الشعرية التي حضرتها شخصيا في مقصف كلية الاداب في جامعة دمشق ، حيث دعي الشاعر ممدوح عدوان لالقاء قصائده وبعد القاء قصيدتين آو اكثر بقليل ، اضطربت الصالة وسمعنا نشيجا نسائيا، كان مصدره المقاعد الامامية ، وبالضبط فتاة دمشقية جامعية تنحدر طبقيا من الشرائح البرجوازية العليا ٠ علمنا فيما بعد انها قالت لزميلتها ان قصائد ممدوح اثرت بها لدرجة انها ندمت على كل وجبة غداء ، وكل امسية مرح ، وكل فستان ارتدته ، لان ممدوح عدوان عبر قصائده اعلمها بصدق آن كل افراحها الصغيرة منسوجة من دموع وعرق ودم الفلاحين والفقراء ،

ولكن الظروف الموضوعية لم تساعد ممدوح عدوان على ان يكون « مايأكوفسكي » رغم توفر العناصر الذاتية ، من موهبة وصدق وانتماء طبقي وثقافي ، وذلك لان مايأكوفسكي شاعر ثورة ، بينما ممدوح شاعر حركة انقلابية برجوازية صغيرة ٠ ومفيد ان نذكر هنا ان جماهير ممدوح وجماهير مايأكوفسكي هي نفسها تقريبا ـ اعني قطاعات الطلبة ـ كما ان ممدوح يمارس فن النحت ، في حين كان « مايا » يمارس الفن التشكيلي ٠٠٠

انعطاف ايديولوجي

لم تمض سنوات قليلة على استلام الحزب الذي ينتمي اليه ممدوح ، السلطة السياسية حتى بدأت تصل الينا اخبار مفادها آن ثمة مضايقات يتعرض لها ممدوح عدوان ٠ وخصوصا بعد هزيمتي حزيران ٦٧ ، وتشرين ٧٣ ٠٠ حيث كان في المرحلة السابقة لحرب تشرين يتعرض لمضايقات كالسجن ايام ، أو مضايقات في الوظيفة او منع بعض كتاباته ، كمنع عرض مسرحية « كيف تركب السيف » مثلا ٠٠ الى ان صدر امر بمنع ممدوح عدوان ورفاقه التقدميين من شعراء وكتاب وصحافيين من الكتابة والنشر نهائيا !!

فبعد حرب تشرين تخلى ممدوح عن تنظيمه السياسي ، وبدأ يعلن انتماءه للقوى اليسارية الجديدة ،

تأثير الايديولوجيات على الفن

منذ حرب تشرين ترسخت المباشرة الفنية اكثر فأكثر ، هذه المباشرة « العدوانية » التي تعني التخلي عن الغموض والرموز الغامضة ٠٠ والتقاط الصور والاحاسيس الشعرية من الواقع ونقلها الى المتلقي بوعي جمالي يشحنها بدلالات سياسية وطبقية ، محاولا الى حد يعيد نسف الرموز الغامضة المختلفة من الذهن المشوش كما هو الامر عند شعراء البرجوازيين وفنانيهم وادبائهم ٠

ان طموح الشاعر عدوان لايصال فنه الى اوسع قطاع من الجماهير الفقيرة آلتي يوجه اليها شعره ، استدعى منه الاهتمام ببناء فني معين يحدده المضمون ، بمعنى ان المضمون الذي يعبر عن الجماهير الفقيرة وهمومها ، وينقل الوعي الثوري الى هذه الجماهير يقتضي شكلا فنيا خاصا به ، شكلا لا يقف عثرة امام ايصال هذا المضمون ، انما يساعد الى اقصى حد ممكن على هذا الايصال ، ومن خلال قراءتنا لقصائد ممدوح الاخيرة ، وخصوصا قصائد ديوان « امي ٠٠ تطارد قاتلها » ، نستطيع الاشارة الى الملاحظات التالية بخصوص البناء الفني للقصيدة « العدوانية » :

١ ـ يعتبر ممدوح من كبار شعراء الغنائية السياسية ، وهو يستعمل في قصائده استعارات وتشبيهات كثيرة ٠٠ وقد خرج الشاعر في الفترة الاخيرة عن التفعيلة خروجا شبه نهائي ، واعتمد القصيدة الطويلة والقافية التي تختتم المقاطع ٠٠ وهذا التحول في بناء قصيدة ممدوح عدوان لا يعود في رأيي الى تقصد او تعمد الشاعر في تنويع استعمال الوزن والايقاع والتفعيلة بين قصيدة وقصيدة ، انما مرد هذا التنويع ان ممدوح « يكتب بأعصابه » كما اشار في مقابلة له مع مجلة الطريق اللبنانية ٠

٢ ـ كان ممدوح يكتب قصائده ، ونصب عينيه متطلبات الالقاء المسرحية ، فشاعرنا لا يريد ايصال شعره مكتوبا فقط انما يعتمد اعتمادا رئيسيا الالقاء المباشر على الجمهور ٠٠ وممدوح عدوان اكثر شعراء سورية اجادة لالقاء الشعر ٠٠ وهنا يتقاطع مع الشاعر السوفييتي « يفتوشنكو»٠٠

٣ ـ اهم عنصر في البناء الفني لقصيدة ممدوح عدوان هو الصورة ، فممدوح يكتب بالصور ، هذه الصور التي تنقل الوعي الى المتلقي باعتبار « الوعي هو مظاهر حركة المادة » و « التعبير بالصورة لا يروي فقط ما يدور في رأس الشاعر ، بل يعكس كل ما يحس به من تداخل بين الفكر والعاطفة » (١) ٠ ويمكن الملاحظة ان شاعرنا يسوق صورا مختلفة متتالية لتأكيد محتوى واحد ، وهذا عائد الى غنى ذاكرة ممدوح عدوان بالتفاصيل السياسية والاجتماعية والثقافية والفلكلورية ، واستناده ـ مؤخرا الى وعي نظري ثوري ٠

٤ ـ يؤكد ممدوح عدوان في شعره ، رأي « سيرجي ايزنشتاين » القائل ان بيت الشعر : « نوع من التوليف بين اللقطات لمشاهد انسانية وطبيعية » ويستطرد ايزنشتاين قائلا : « ولعلامات التعجب الثنائية او الثلاثية دلالتها الكبيرة ٠ فهي توحي بزيادة حجم اللقطات ٠ ويتحقق هذا عند القاء الشعر بوساطة نغم الكلام ورفع الصوت ٠ وسيرى ان نجاح التعبير الصوتي للصور في اثارة العاطفة المطلوبة يعتمد على التوليف بحيث يحقق التوليف الصورة الذهنية المعادلة للعاطفة المطلوبة ، ويمضي التوليف الى ابعد من ذلك عندما يستخدم اسلوب القطع ٠٠ ففي هذا النوع من البناء يصبح الايقاع على اساس تتابع الجمل الطويلة والجمل التي تقتصر على كلمة واحدة وسيلة من وسائل رسم الشخصيات رسما ٠ والمثير للانتباه في هذه الملحوظات وغيرها انها لا تتحدث عن تأثير متبادل بين الفنون بقدر ما تكشف عن عناصر لغة تبدو مشتركة بين الفنون » ٠ (٢)

(١) « التجربة الخلاقة » ـ س ٠ م ٠ بورا ـ ترجمة سلافة حجاوي ـ وزارة الاعلام ـ بغداد ١٩٧٧ ٠

(٢) « مذكرات مخرج سينمائي » ـ سيرجي ايزنشتاين ـ ترجمة انور المشري ـ المؤسسة المصرية العامة ١٩٦٣ ٠

الهامشان عن مقال « الكلام واللغة » لمحمد الاسعد ، الآداب البيروتية ، العدد السادس حزيران ١٩٧٨ ، السنة ٢٦ ٠

ان رأي ايزنشتاين السابق يلقي ضوءا على تجربة ممدوح عدوان الفنية ، المليئة بالتوليفات والصور السينمائية وفيما يلي نماذج ٠

نعتقد انها كافية للتأكد ، يقول ممدوح في قصيدته « حتى اخر الصعاليك » القصيدة ما قبل الاخيرة في ديوان « امي ٠٠ تطارد قاتلها » :

(★ يسير في حانة
وهو يرفع ياقته
يطلب الكأس
قبل تذوق طعم الشراب
تفاحئه طلقه
★ يجيء الى امرأة
ويمر بها في الازقة
يأخذها نحو غرفته
ثم يخرج مفتاحه
قبل ان يولج الـ ٠٠٠
طلقه ٠
يلاعب أطفاله
ثم يرمي بأصغرهم ضاحكا في الهواء
وقبل استعادته
طلقه ٠
★ يلفلفه الخوف ،
يهدأ في البيت
يخرج من رفه كتبا
يتصفح أسماءها ٠٠
طلقه
يتفحص اسماءها ٠٠
طلقه
★ يعود لبستانه
يتفحص اشجاره
ويمد يديه ليقلع عنها الطحالب و ٠٠٠
طلقه) ٠ (٣)

ان المقاطع الشعرية السابقة تؤكد ملاحظاتنا السابقة ، وخاصة ما اشرنا اليه بخصوص الصورة والتوليف السينمائي في القصيدة ٠

في المضمون

ان ممدوح عدوان حاول استعمال كل الاساليب والاشكال الجماهيرية في الفن من تصوير ومسرح وسينما الخ ٠٠ وذلك لايصال مضمون تقدمي الى الجماهير ، فما هو محتوى شعر ممدوح عدوان؟٠ منذ ديوانه الاول « الظل الاخضر » نلاحظ ان محتوى قصائد شاعرنا مركزة على الاضطهاد الذي يعاني منه فلاحو الريف السوري ، ولكن بعد هزيمة حزيران يضاف الى هذا الهم الطبقي هم قومي وهو الاحتلال الصهيوني وتخاذل البرجوازيات العربية في مواجهته ٠ ومنذ ديوانه « تلويحه الايدي المتعبة » اصبح الهم القومي المركزي « قضية فلسطين » هو محتوى قصائد الشاعر ممدوح عدوان ٠ فأصبح شعره يؤرخ للقضية الفلسطينية ليس من داخلها آنما من محيطها العربي ٠ واصبح شعره يعكس المحيط العربي مع القضية العربية المركزية ٠ خصوصا وانه سوري ، ويعكس موضوعيا مشاعر وتفاعل شعب ونظام دولة من دول المواجهة مع القضية الفلسطينية ٠ بينما نجد مثلا ان شعر محمود درويش يعكس القضية من داخلها باعتباره كان شاعر المقاومة في الارض المحتلة ثم اصبح شاعر الثورة الفلسطينية خارج الارض المحتلة ، كما انه يتفاعل مع محيطها العربي ـ لبنان ٠٠

ولكن شعر ممدوح عدوان لا يعكس فقط القضية الفلسطينية بين الجماهير العربية ، بل يعكسها ايضا بين الانظمة والانظمة دخل هذه القضية ٠٠ بين الجماهير المدافعة والواقفة الى جانب الثورة الفلسطينية والانظمة المساومة على القضية والمتآمره على الثورة ٠ ونحن نستطيع بسهولة ان نرى كيف يعكس شعر عدوان حروب الانظمة العربية مع العدو الصهيوني ، وحروب الجندي العربي ضد العدو الصهيوني ، وقتال الفدائي الفلسطيني للعدو الصهيوني ٠ كما نستطيع آن نرى كيف يعكس الشاعر حروب الانظمة العربية ضد الثورة الفلسطينية في لبنان والاردن مثلا ٠٠ واوضح مثل قصيدته الممتازة « هكذا تكلم التل » التي تذكرنا بأشهر قصائد « مايأكوفسكي» من حيث البناء الفني ٠

المسألة الثانية التي يعالجها شاعرنا في قصائده هي المسألة الطبقية ، التي تتضح في تصويره للظلم والاستلاب الذي يعاني منه الفلاحون من قبل الاقطاع سابقا ورأسمالية الدولة البيروقراطية لاحقا ٠

كما يعكس شعر ممدوح عدوان وكتاباته الاخيرة ظواهر كومبرادورية بدأت تنمو في بلادنا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ٠

المسألة الثالثة وليس الاخيرة آلتي يتناولها ممدوح هي قمع الحريات الديمقراطية ، وخصوصا حرية الكتابة والنشر ٠٠ حرية الفكر والثقافة ٠ ويخوض باستمرار حربا ضروسا ضد اليمين الثقافي ، وادوات السلطة الثقافية ٠

ان اليمين الثقافي يحاول آن يشير باستمرار الى ان ممدوح عدوان ورفاقه الكتاب والشعراء والفنانين التقدميين يشكلون خطرا على البلاد ! ٠ ويدس السم في الدسم حين يتعرض لنتاجاتهم الفنية مرددا باستمرار « بسملته » المعروفه ، ان ممدوح عدوان خطير على الادب والفن لانه يدخل السياسة فيهما ٠٠ ويحاول هؤلاء النقاد اليمينيون دون كلل الدعوة الى فصل الادب عن السياسة ، وقد رد ممدوح عدوان على هذه الآراء عندما كتب في جريدة الثورة السورية اخر مقال له ؟ وعنوانه « بدهيات قومية لن تنسى » حيث قال :

« مانعني به عند التحدث عن الادب السياسي هو الادب الذي ينطلق من موقف متفهم وحار ٠موقف من الحياة والمجتمع وما يجري فيهما موقف يعبر عن نفسه ادبيا لكنه يحتوي على ادراك البعد السياسي والاقتصادي للاحداث التي تجري من حول المرء ـ الكاتب هنا ـ وهو ايضا قادر على رؤية موقعه الصحيح من التاريخ والواقع والعالم ٠ انه ادب منحاز قطعا الى الغالبية الساحقة من الجماهير

(٣) (امي ٠٠ تطارد قاتلها) ص (٧١ ـ ٧٤) ٠